

الباب الأول

الدراسة الدالية

المبحث الأول:

الدلالة والصحة النحوية والغموض

لا تقتصر أهمية علم الدلالة (Semantics) على كونه جزءاً من علم اللغة أو فرعاً من فروعها، أو لأنه يعد العامل الأساسى فى الوصول إلى تحديد دقيق للتطور الدلالى التاريخى للألفاظ، بل إن أهميته تتخطى كل ذلك إلى الخد الذى يصبح فيه هذا العلم ذا أهمية كبيرة لدى المناطقة، والفلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع. وعلى الرغم مما قد يبدو من ارتباط واتصال بين هذه العلوم والمجالات البحثية، إلا أن ثمة تمايزاً بينها؛ ذلك أن كل علم منها له سماته، وخصائصه، ومنطلقاته التى ينطلق منها، ومن هنا يبدو اختلاف النظرة، والتناول، والهدف، والوسيلة، فى دراسة دلالة الكلمة والمعنى.

وعلم الدلالة فى أبسط تعريفاته هو دراسة المعنى، والكلمة «(Semantique) المشتقة من الكلمة اليونانية (Sêmainô)، «دل على»، والمتولدة هى الأخرى من الكلمة «Sêma» أو «العلامة» هى بالأساس الصفة المنسوبة إلى الكلمة الأصل (Sens) أو «المعنى»^(١).

وإذا كان علم الدلالة يعنى دراسة المعنى، فإن هذا المعنى لا تبرزه إلا الكلمة، ولا حياة للكلمة إلا فى إطار سياق يحتويها، سواء أكان هذا السياق مكتوباً مقرأً، أم منظوقاً مسموعاً.

وثمة فرق بين الكتابة والنطق، أو بين اللغة المكتوبة ونظيرتها المنظوقة. والنطق الإنسانى أقدم من الكتابة الإنسانية من حيث الوجود والفطرة؛ فالطفل الوليد يصاحبه لحظة خروجه إلى الحياة بعض صور الصياح والبكاء، فصدور بعض الأصوات - التى

(١) بيار غيرو: علم الدلالة .

ترجمة: أنطوان أبو زيد . منشورات عويدات، بيروت . باريس . ط ١، ١٩٨٦ . ص ٦ .

هي بكاء الطفل وصياحه - والخروج إلى الحياة يقترنان في لحظة ما، ثم تتم بعد ذلك عملية اكتمال الجهاز النطقى على مراحل، فإذا كان الطفل وعمره سنة ونصف السنة يمتلك من الحصيلة اللغوية ما بين ثلاث كلمات إلى خمسين كلمة ينطقها مفردة، فإنه في سن ثلاث سنوات يبلغ عدد المفردات التي تكون لديه ما يقرب من ألف كلمة ينطقها بوضوح تام^(١).

وتتميز اللغة - أية لغة - بإمكانية خلق وتوليد جمل جديدة من جمل أخرى ، وهو ما نسميه «التعاكس»، وهو يختلف عن الاشتقاق الذي يعنى توليد ألفاظ جديدة من الألفاظ الأخرى موجودة.

ويعتمد هذا التعاكس على الإتيان بالنفى ، ثم بالمقابل الضدى لما ذكر، فقولنا: انطلقت الطائرة بسرعة، يعنى أن الطائرة لم تنطلق ببطء. وتعميم هذه الظاهرة بحيث تصبح ظاهرة مطلقة أمر فيه نظر، فإذا قلنا مثلا: المرأة ليست جميلة، فهل يعنى هذا أنها قبيحة؟ وهل قولنا: إن الحجر ليست واسعة، يعنى أنها ضيقة؟ وإذا وصفنا رجلا بأنه ليس بخيلا، فهل معنى هذا أنه كريم؟.

ويمكننا بداية أن نقسم الصفات قسمين: صفات عليا، ونعنى بها تلك الصفات التي يتحقق فيها الحد الأعلى من الوصف، مثل: كبير، وسريع، وجميل، وواسع، وكريم، وصفات دنيا، وهى الصفات التي نلاحظ فيها القدر الأدنى من الوصف، وهى فى الوقت ذاته تعد المقابل الضدى المعجمى للصفات العليا، مثل: صغير، وبطيء، وقبيح، وضيق، وبخيل.

ووصف الشيء بالصفة العليا ينفى عنه اتصافه بالصفة الدنيا التي تقابلها، فقولنا مثلا: الرجل كريم يعنى أن الرجل ليس بخيلا، ووصف المرأة بأنها جميلة يعنى أنها ليست قبيحة. أما نفى الصفة الدنيا عن الشيء ، أو الشخص، فلا يعنى إثبات الصفة العليا له، فإذا قلنا: إن الرجل ليس بخيلا، فهذا لا يعنى أنه كريم، وإذا قلنا: المرأة

(١) انظر: د. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العنقى.

كتاب عالم المعرفة - الكويت . يناير ١٩٠ ص ١٦١ .

ليست قبيحة، فهذا لا يعنى أنها جميلة؛ فالرجل ليس بخيلا وليس كريما، فهو بين بين، والمرأة ليست قبيحة وليست جميلة، فهى بين بين.

وإمكانية خلق وتوليد جمل جديدة من جمل أخرى تبدو واضحة فى الجمل التى تبنى على أفعال متعدية، إذ نستطيع أن نُؤلِّد جملا جديدة من الجملة التالية: كتبتُ الرسالة، فنقول: كتبتُ الرسالة، والرسالة كتبتُ، والرسالة مكتوبة... ويقط الخلق والتوليد إذا كانت الجملة تبنى على فعل لازم، كأن نقول مثلا: سقط المطر، ونما الزرع، فهنا يمكن توليد جمل اسمية فقط، فنقول: المطر ساقط، والزرع نام...

ويدهى أن الالفاظ عرضة للتغير والتطور والنمو، فالحياة متطورة، واللغة تعبير صادق عن الحياة، وما يصيب حياتنا ويعتريها من تطور وتغير لا بد أن ينعكس أثره على اللغة التى نتكلمها ونعبر بها عن حاجتنا ومشاعرنا وانفعالاتنا.

ونستطيع أن نرصد مظاهر التغير الدلالى فيما يلى:

١ - رقى الدلالة: كما فى لفظ (السفرة)؛ إذ جاء فى تاج العروس: «السفرة بالضم: طعام المسافر المُعدَّ للسفر، هذا هو الأصل فيه، ثم أطلق على وعائه، وما يوضع فيه من الأديم، ثم شاع الآن فيما يؤكل عليه، وفى التهذيب: السفرة: التى يؤكل عليها، وسميت لأنها تُسَطَّ إذا أُكل عليها»^(١).

٢ - انحطاط الدلالة: ويبدو ذلك فى كلمة (النسوان)، وهو جمع المرأة من غير لفظها؛ إذ شاعت هذه الكلمة على ألسنة الشعراء قديما، كما فى قول عمر بن أبى ربيعة:

إن قلبى بعد الذى نال منها

كالمُعنى عن سائر النسوان

أما الآن فقد صارت مستهجنة، سواء أكان ذلك فى المستوى الأدبى للغة أم فى الخطاب العادى فى بعض البلاد كمصر، مع أنها تشيع فى الخطاب اليومى

(١) تاج العروس: مادة سفر: ٥٢٦/٦.

في بعض البيئات، كما في بلاد الشام، التي لا يرى أهلها حرجاً أو غصاصة في استعمال الكلمة.

٣ - تعميم الدلالة: كما في كلمة الخمر؛ إذ كانت تعنى (ما أسكر من عصير العنب)، ثم عمت الدلالة فصارت تعنى كل مسكر من الشراب.

٤ - تخصيص الدلالة: ويتضح ذلك في كلمة (الحجّ)، إذ كانت تعنى القصد، فكان يقال: حجّ إينا فلان، أى قَدِمَ، وحججت فلانا، أى: قصدته، ثم استقر استعماله في القصد إلى مكة للنسك والحج إلى البيت خاصة؛ تقول: حجّ يحجّ حجاً. والحجّ: قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضاً وسنة^(١).

٥ - توسيع الدلالة: ويتجلى ذلك في الألفاظ التي تكتسب معاني جديدة لم تكن لها، وهي ما تدخل في إطار المشترك اللفظي، ومن ذلك الألفاظ الدالة على الرتب العسكرية، نحو: ملازم، ونقيب، ورائد، ومقدم، وعقيد، وعميد... ويؤدى المجاز - هنا - دوراً مهماً في توسيع دلالة بعض الألفاظ؛ فنحن نقول: رأس الأمر، ورأس الجبل... ونقول أيضاً في المجال الرياضى: رأس الحربة.

٦ - تضيق الدلالة: ويتبدى ذلك في بعض الألفاظ التي تعد من الأضداد؛ كما في كلمة (مولى)، التي تعنى المنعم والمنعم عليه، والمعتنق، والمعتنق، والعبد، والرب، والحليف... مما أدى إلى انحسار استخدام اللفظ ببعض هذه الدلالات، نحو: المولى بمعنى المعتنق والمعتنق والعبد، ويرجع ذلك إلى التغيرات والتطورات التي أصابت الحياة، مما انعكس أثره على طبقات المجتمع ونظام الحياة فيه.

٧ - فقدان الدلالة: ويبدو ذلك في العبارات الجاهزة التي ترتبط بالتعامل اليومي والإنساني وتتصل بالخطاب العادى بين الناس، كالعبارات الخاصة بالتحية والترحيب، أو المتصلة بالعلاقات الاجتماعية، أو تلك التي تذيّل بها الرسائل

(١) لسان العرب: مادة: حجج . ص ٧٧٨ .

والمخاطبات الرسمية وغير الرسمية، ومثال ذلك العبارات: صباح الخير، مساء الخير، كيف حالك؟ كيف صحتك؟ وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، وتفضلوا بقبول خالص التقدير^(١)، إذ يلاحظ أن هذه العبارات قد فقدت دلالاتها، وصارت لا تعنى شيئاً مما لها في الأصل من دلالة. إنما هدفها - في المقام الأول - إشعار الغير بالود، بحيث تكون العبارة الجاهزة مدخلاً إلى حديث بعينه، أو ختاماً لموضوع بذاته.

وإذا كانت اللغة وسيلة للإبانة عن الفكر والإفصاح عما يدور في الذهن، والكشف عن المشاعر والانفعالات، فمن المؤكد أننا لا نرغب في القول بأن الوظيفة الأولى أو الوحيدة للغة هي إمدادنا بمعلومات، أو إخبار السامعين أو القارئين بـ «الحقائق» التي لا يعرفونها (رغم أن بعض اللغويين والفلاسفة يعتقدون هذا). فكثير من معانينا ليست «تصورية» على الإطلاق، وإنما هي «خاصة بالعلاقات بين الأشخاص»، أو «اجتماعية» تربط بيننا وبين الآخرين^(٢).

وكما تفقد الألفاظ دلالاتها في بعض الأحيان، فإنها كذلك قد تصير وسيلة للتعمية والغموض، كما أنها قد تعجز عن الإبانة والإفصاح.

أما صيرورتها أداة تعمية وغموض فتحدث حين يلجأ المرسل - صاحب الرسالة - إلى الإلغاز في البنية التركيبية، مما يؤدي إلى عدم وضوح محتوى الشحنة الدلالية في الرسالة الموجهة. ويبدو ذلك مثلاً فيما أثر عن أن الخليفة الواثق سأل أحدهم عما يقول في القرآن - وكان هذا الخليفة يقول بخلق القرآن ويعاقب من يقول بغير ذلك - فلم يجب، فأعاد الخليفة السؤال عليه، فقال: من تعنى يا أمير المؤمنين؟ قال: إياك. قال: مخلوق.

(١) انظر: د. محمود فهمي حجازي: المعجمات الحديثة. ص ٦٥.

(٢) ف. ر. ر. بالمر: علم الدلالة. إطار جديد.

ترجمة: د. صبرى إبراهيم السيد.

دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع، الدوحة. قطر، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) ص ٥٨.

ويروى أيضاً أن أحد الخلفاء طلب من أحد الأئمة أن يصعد المنبر ويلعن على ابن أبي طالب، وكان هذا الأمر ثقيلاً على قلب هذا الإمام، ولكنه صعد المنبر وقال: لقد أمرني الخليفة أن ألعن علياً، لعنة الله عليه.

ففي هاتين الرسالتين وأمثالهما يأتي الغموض متعمداً، ولا يكون المرسل فيها جاهلاً بالمحتوى الدلالي للفظ وما يحمله من دلالات، بل إنه يكون واعياً لما يقول، وعارفاً بالأبعاد الدلالية للرسالة المبلغة.

ويبدو هذا الأمر جلياً في التراكيب التي يؤتى فيها بلفظ أو أكثر، ذي معنيين أو دالتين: دلالة مقصودة، وأخرى غير مقصودة. ويظهر ذلك أيضاً في التراكيب التي تنبنى على الإلغاز اللغوي^(١)، والتي تبين وعى المرسل بمدلول اللفظ ومحتواه، كما أنها تكشف عما لديه من ثقافة معجمية، ويتضح هذا فيما أورده الحريري في لغز لغوي، جاء فيه: «قال: ما تقول فيمن توضحاً، ثم لمس ظهر نعله؟ قال: انتقض وضوءه بفعله»^(٢).

والغموض - هنا - يكمن في لفظ «النعل»، إذ إن فيه دالتين: الحذاء، وهي غير مقصودة، والزوجة، وهي الدلالة المقصودة.

وقد يحدث الغموض نتيجة عدم الوعي بدلالات الألفاظ أو عدم المعرفة الكافية بالبنية النحوية للتركيب^(٣). وقد يكون الغموض ناتجاً عن الحذف المخل الذي

(١) يمثل ذلك ما أورده الحريري في المقامة الثانية والثلاثين «الطبيبية». حيث أورد مائة مسألة فقهية تعتمد كلها على الإلغاز اللغوي.

انظر: الشريشي: شرح مقامات الحريري البصري - إشراف وتصحيح: محمد عبد المنعم خفاجي - المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان . (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م) ج ٤ . ص ١٤٠ - ١٦٩ .

(٢) السابق ج ٤ ص ١٤٤ .

(٣) من ذلك ما جاء في امتحان نهاية العام الدراسي (مايو ١٩٩٠) بكلية التربية جامعة حلوان، في مادة

«طرق التدريس» للفرقة الثالثة، في «ثانياً»: «ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (X) أمام العبارة الخاطئة، مع تصحيح العبارة الخطأ على نفس الورقة، وأرفق ورقة الأسئلة بكراسة

الإجابة، ولا تستخدم أدوات النفي» .

يُحدث لبساً في الفهم^(١). وقد يكون مصدر الغموض الاستخدام الخاطيء لحرف الجر، بحيث ينتج عنه إساءة فهم الرسالة الموجهة^(٢).

ويبدو الغموض كذلك في التراكيب النحوية التي تختلف فيها دلالة الحرف من سياق إلى آخر، نحو قولنا: أكلت السمكة حتى رأسها، فيكون الرأس مأكولاً، إن كانت (حتى) بمعنى (مع)، ويكون غير مأكول إن كانت بمعنى (إلى)، وإنما يكون الأكل قد انتهى إلى الرأس.

= ودون التعرض للصياغة، نقول: إن النهي في قوله «لا تستخدم أدوات النفي» أحدث غموضاً في السياق، من جهة أنه يعنى عدم جواز استخدام أدوات النفي في سياق تصحيح العبارة، وليس هذا هو المراد، وإنما المراد ألا يكتبى بذكر «لا» أمام العبارة الخاطئة، بل يجب تصحيح تلك العبارة، وعلى ذلك فإنه يجوز استخدام أدوات النفي عند التصحيح، ويستقيم محتوى الرسالة لو قيل: «... ولا تكتف باستخدام أداة النفي (لا)».

(١) أ - يمثل ذلك ما ورد في صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٩٩٠/٥/٩ حيث جاء فيها:

«رئيس وزراء أيسلندا يزور مصنع ١٠٠ الحرير»

مصر تتج المدافع الثقيلة بأنواعها محلياً».

فالتركيب الأول منفصل تماماً عن التركيب الثاني، وجاءت النقطتان (:). دونما دلالة تذكر، على الرغم من أن النقطتين لهما دلالة مهمة ومحددة في التراكيب الصحفية؛ فهما ثابتان بدلا من الأفعال: قال، أو صرح، أو ذكر.

ب - ويبدو الغموض أيضاً فيما ورد في صحيفة الوفد القاهرية بتاريخ ١٩٨٩/٦/١، إذ جاء فيها: «العاهل الأردني يتقد وسائل الإعلام لاهتمامها بتحركاته، ويشعر بالملل من رؤية صورته في الصحف والتلفزيون».

ومجيء هذا العنوان على هذا النمط يوحي بغير ما هو مراد؛ ذلك أنه قد سقط - دون وعي - كلمة «تكرار» قبل كلمة «رؤية»، كما يوضح ذلك ما جاء في تفصيلات، والمعنى أنه يشعر بالملل من تكرار رؤية صورته. . . وليس من مجرد رؤية صورته.

(٢) من ذلك ما جاء في صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٩٩٠/٥/٢٦، إذ ورد فيها:

«تعليمات للنائب العام بسرعة تنفيذ قرار المحكمة . . .».

فاللام في «النائب» تثير لبساً، ومصدر هذا اللبس أن حرف الجر «اللام» يمكن أن يكون بمعنى «إلى»، وعلى ذلك يكون التساؤل: هل التعليمات موجهة للنائب العام . . . أم هي صادرة منه؟ ولو قيل تعليمات من النائب العام . . . لفهمت الرسالة على وجهها المراد؛ إذ إن التعليمات من النائب العام وليست إليه.

كما يتجلى الغموض في التراكيب التي تعتمد على التورية، ومن ذلك قول سراج الدين الوراق (٦١٥ - ٦٩٥ هـ) في شخص اسمه عرفات :

أَطْبِئُوا فِي عَرَفَاتٍ وَعَدُّوا
يَتَعَاظُونَ لَهُ حُسْنَ الصَّفَاتِ

ثم قالوا لي: هل وافقتنا؟
قلت: عندي وَقْفَةٌ فِي عَرَفَاتِ

وقول ابن نباتة المصري (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ):

وَالنَّهْرُ فِيهِ كَمِبرِدٍ
فَلَأَجَلِذَا يَجْلُو الصَّدَا^(١)

كذلك فإن عدم الإدراك التام لدلالات بعض الكلمات أو الحروف قد يوهم بأن هناك تكرارا أو حشوا، ومن ذلك ما يروى من أن الكندي الفيلسوف، وهو يعقوب ابن إسحق، (ت نحو ٢٦٠ هـ) قال لأبي العباس ثعلب (٢٠٠ - ٢٩١ هـ): «إني لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه = وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل = وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني»^(٢).

ثمة فروق دقيقة بين التراكيب المتشابهة، وهناك ظلال من الإيحاءات والدلالات قد تخفى على البعض، ومنه أن بعضهم قد لا يرى فرقا بين قولنا: (زيد المنطلق).

(١) (الصداء)، والاصل: الصدا: وسخ الجديد . (والصدى): العطش، وهو المعنى المراد .

(٢) عبد الفاهر الجرجاني: دلال الإعجاز .

تعليق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بالقاهرة - دار المدنى بجدة، ط ٣، ١٤١٣ هـ -

وقولنا (المنطلق زيد)، والثابت أن بينهما اختلافًا، فقولنا: (زيد المنطلق) يدل على أن انطلاقًا «قد كان»، وعرف السامع كونه، إلا أنه لم يعلم أمن زيد كان أم من عمرو؟ فإذا قلت: (زيد المنطلق)، أزلت عنه الشك وجعلته يقطع بأنه كان من زيد... وليس كذلك إذا قدّمت (المنطلق) فقلت: (المنطلق زيد)، بل يكون المعنى حينئذ على أنك رأيت إنسانًا ينطلق بالبعد منك، فلم تُثبته، ولم تعلم أزيد هو أم عمرو، فقال لك صاحبك: (المنطلق زيد)، أي هذا الشخص الذي تراه من بعد هو زيد»^(١).

ويتصل بهذا ما يروى من أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبِثْتُ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لِقِسْتِ نَفْسِي»^(٢). واللّقس: الحرص والشره وخبث النفس. والخبث: ثقل النفس. فقوله «لقسست نفسي وخبثت»، معناهما واحد. وإنما كره من ذلك لفظ الخبث وبشاعة الاسم، وعلمهم الأدب في المنطق وأرشدتهم إلى استعمال الحسن وهجران القبيح منه»^(٣).

وإذا كان الغموض يمكن أن يصيب اللغة، فإن اللغة قد تعجز أحيانًا عن الإفصاح والتحديد الدقيق إلا اعتمادًا على بعض الأشياء، أو أن تحيل المتلقى إلى ما يختزنه من خبرات ومعارف، فلو شئنا أن نعرف اللون البرتقالي مثلًا، فأماننا تعريفان:

أولهما: اللون البرتقالي: هو لون يتم من مزج لونين: الأحمر والأصفر.

وثانيهما: اللون البرتقالي: هو بلون البرتقال.

(١) السابق، ص ١٨٦.

(٢) البخاري: صحيح البخاري.

توثيق وضبط: د. طه عبد الرؤوف سعد.

دار الحرم للتراث، القاهرة، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م): ٤/ ١٢٠.

(٣) بكر بن عبد الله أبو زيد: معجم المناهي اللفظية.

دار العاصمة للنشر والتوزيع بالرياض، السعودية، ط ٣، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م). ص ٢٤٧.

وكلا التعريفين يعتمد على الخبرة الحياتية والمسبقة عن الأشياء، فالتعريف الأول يفترض معرفتنا باللونين: الأحمر والأصفر، والتعريف الثاني يبنى على وعينا بلون البرتقال، فضلاً عن البرتقال ذاته، ويشبه ذلك أن نعرف اللون الأحمر فنقول: إنه بلون الدم.

وكما يمكن أن يعترى اللغة الغموض، وإضافة إلى عجز اللغة أحياناً عن التحديد الدقيق، فإن ثمة ظاهرة تتعلق بالبنية التركيبية للجملة، ونعني بها التعقيد اللفظي الذي يؤدي إلى صعوبة وصول الرسالة المبلغة إلى مستقبلها؛ فاختلاف ترتيب عناصر الجملة قد يؤدي إلى التعقيد الذي قد ينجم عنه الغموض، على الرغم من أن خبرتنا المسبقة عن العالم ومعرفتنا بالأشياء قد تساعدنا على فهم الرسالة المبلغة.

ويبدو ذلك في التركيبين التاليين المختلفين في الترتيب:

- An old man came in who suffered with asthma .
- An old man who suffered with asthma came in.

فلاحظ أن الجملتين ليستا على درجة واحدة من القبول Acceptability، فإذا كانت الجملة الثانية مقبولة لتوفر الدقة النحوية والترتيب الصحيح في عناصرها، فإن الجملة الأولى غير مقبولة، إذ إن ضمير الوصل Who قد فصل عن الفاعل An old man بفعل وحرف جر، مما أحدث نوعاً من التعقيد في تركيبها.

ويتضح سوء الترتيب أيضاً في التركيبين التاليين:

- An old man with asthma came in .
- An old man came in with asthma .

فالجملة الأولى أكثر دقة وصحة Correctness من نظيرتها الثانية، ويعود ذلك إلى انتظام ترتيب عناصر الأولى، وافتقاد هذا الأمر في الثانية، حيث بعدت العبارة الوصفية With asthma عن الموصوف An old man.

ويختلف الأمر في التركيبين التاليين:

- I called most of the girls up .
- I called up most of the girls .

إذ إنهما على درجة واحدة من القبول، ويرجع هذا إلى أن المفعول به اسم ظاهر، وليس ضميراً. ونلاحظ أيضاً أن المفعول به قد وقع - في التركيب الأول - بين الفعل Called وحرف الجر up .

لكن الجملة:

- I called up the girls who lived there .

أكثر قبولاً من الجملة:

- I called the girls who lived there up .

وذلك لأنه قد فصل بين الفعل وحرف الجر بمفعول به the girls وجملة وصفية تابعة Adjective Subordinate Clause وهي جملة: Who lived there . فالعامل الحاسم في تحديد درجة الصحة والقبول هو البنية التركيبية Syntactic Structure للجملة.

وقد يؤدي كثرة استخدام أدوات الربط إلى إطالة الجملة؛ مما ينتج عنه في النهاية تعقيد Complexity المعنى، ومثال ذلك التركيبان:

- The dog chased the cat that killed the rat that ate the corn .
- The rat the cat the dog chased killed ate the corn .

فالجملتان فيهما شيء من التعقيد، ولكن الجملة الثانية أكثر تعقيداً من الأولى؛ ولذا فإن عملية التبليغ فيها تبدو أكثر صعوبة⁽¹⁾ ويعود ذلك إلى ما يلي:

(1) J. P. Thorne: "Generative Grammar and stylistic Analysis", edited by John Lyons. Penguin Books, 1972. p. 187.

(أ) إسقاط أدوات الربط.

(ب) توالى الأفعال والفواعل.

(ج) أن ثمة ازدواجية في وظيفة الأسماء المتوالية، فكل منها يعسد فاعلا للفعل ومنعولا لفعل آخر في آن واحد.

وهناك أمر آخر يضاف إلى ما سبق، وهو أن اختلاف المجال الدلالي للألفاظ في البيئات اللغوية المختلفة قد يؤدي إلى لبس في المعنى، وذلك إذا كان ثمة تعامل لغوي لأفراد ينتمون إلى هذه البيئات اللغوية المتباينة، فكلمة «ناصح» - مثلا - تعنى في العامية المصرية: الفطن، الذكى، بينما تعنى في عامية أهل الشام: الشخص السمين. وكلمة «الحام» في عامية أهل مصر تجيء بمعنى: القائم بلحام المعادن، بينما هي عند أهل الشام تدل على الفصّاب، أى بائع اللحم.

ولو سمع عُمانى - مثلا - قاهريا ينطق كلمة «الفقر» - بتحويل القاف إلى همزة - لظن أنه يعنى «الفار»، ذلك الحيوان القارض، إذ إن القاف - عند أهل عُمان - لا تتحول إلى همزة، وإنما تُنطق في الكلام الدارج قافا.

ولا يقتصر اختلاف المجال الدلالي للألفاظ على البيئات اللغوية المختلفة، إذ إننا نجد ذلك أيضاً في البيئة اللغوية الواحدة، فكلمة «ناصح» بما لها من دلالة في عامية أهل مصر، فإنها في اللغة الفصحى ذات دلالات مختلفة، منها مثلا أنها تعنى مقدم النصيحة، فتكون اسم فاعل من نصح ينصح، وكذلك يقال رجل ناصح، أى: خائط.

واختلاف الدلالة بين المستوى الفصحى ونظيره العامى يتسع ويتطور باتساع الحياة وتطورها، فكلمة «الجواز» - مثلا - تعنى في العامية المصرية: الزواج، وهى مقلوبة عنه، وتعنى أيضاً وثيقة السفر Passport، بينما في الفصحى تعنى: صك المسافر، أى أن دلالة الكلمة في الفصحى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدلالة الثانية للكلمة في العامية، ولا تتصل بحال من الأحوال بالدلالة الأولى.

كذلك فإن كلمة «عبيط» تعنى فى الفصحى اللحم الطرى، أو اللحم السليم من الآفات، بينما تشير دلالتها فى العامية إلى الأبله، وهناك أيضاً كلمة «جمهورى» التى تعنى فى الفصحى العصير المطبوخ الحلال، أو هى اسم شراب يُسكر، بينما تتبدى دلالتها المعاصرة فى قولنا - مثلاً -: الحزب الجمهورى، النظام الجمهورى (فى مقابل النظام الملكى).

من هذا نرى أن اللفظ الواحد قد تختلف دلالاته من بيئة لغوية إلى أخرى، بل إن هذا الاختلاف الدلالى للفظ الواحد قد يكون فى إطار البيئة اللغوية الواحدة.

ويضاف إلى ما سبق أن اكتساب الطفل اللغة يتم استناداً إلى ما يسمعه من لغة منطوقة من قبل الآخرين ممن يعيش بينهم، ويتم هذا عن طريق تمييز الوحدات الصوتية وإدراك محتواها وفهم دلالاتها.

إن الدلالات الصحيحة لا تتحقق فحسب استناداً إلى الصحة النحوية Grammatical Correctness (أو الدقة النحوية Grammatical Accuracy)، فقد تكون الجملة صحيحة نحويًا، ولكنها لا تنتج دلالات صحيحة، فنحن يمكننا أن نقول مثلاً: افترست القطعة الأسد...، وقراء الكلب الرسالة...، وابتلع القلم الشجرة، فهذه الجمل وأمثالها - مما يقصد بها حقيقة اللفظ ومدلوله المباشر ولا تقوم على المجاز - لا تبنى على المنطق، وعلى الرغم من أن هذه التراكيب تتوافر فيها الصحة النحوية، إلا أنها فاسدة منطقيًا، لأنها لا تتفق مع التصور العقلى والمنطقى، وتتنافى وطبائع المخلوقات والأشياء.

والفساد المنطقى للجملة، إضافة إلى أنه يؤدي إلى فشل عملية التبليغ Communication، فإنه قد يدل على أن هناك فساداً فى عقل مرسلها. ومعنى ذلك أنه إذا كانت الأخطاء النحوية تدل على فساد فى الذوق، فإن الفساد المنطقى قد يدل على أن هناك خللاً فى التفكير.

وفى مقابل ذلك فإن عدم تحقق الصحة النحوية مع تحقق الصحة المنطقية

Logical Correctness قد يؤدي إلى فهم الرسالة على وجهها المراد، فيمكننا، مثلاً، أن نقول: صلى الإمام «بالمصلون»، فعلى الرغم من أن هذا التركيب يفتقر إلى الصحة النحوية، إلا أن الاستدلال العقلي والخبرات السابقة المتصلة بالموضوع تجعلنا نفهم الرسالة المبلغة على وجهها الصحيح. ويشبه ذلك أن يقول أحدهم: إن «تسمى» في الخير، «تنال» ثواب ربك، دون جزم في فعلى الشرط والجواب، إذ نستطيع أن نتيين المراد من الرسالة، على الرغم من خلوها من عنصر الصحة النحوية، وذلك لتوفر المنطق في الدلالات المتجة، مما أفرز لنا دلالات صحيحة.

وإذا كان النحو يضع حدوداً صارمة وأصولاً وقواعد، بهدف الحفاظ على سلامة العبارة وصحة الأداء اللغوي، فإن الإعراب يجيء ليوضح وظيفة الكلمة في الجملة وعلاقتها بغيرها من الألفاظ في السياق، حتى يصل المعنى إلى المرسل إليه على وجهه الصحيح. ويعنى ذلك أن ثمة علاقة وثيقة بين الإعراب والمعنى، وعلّة وجود الإعراب والاحتياج إليه أن «الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، فتكون فاعله، ومفعولة، ومضافاً إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتهأ أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني»^(١).

وثمة إجماع بين النحاة على أهمية الإعراب في بيان المعنى، إلا أن أحدهم، وهو قطرب (ت ٢٠٦هـ) قد خرج عن هذا الإجماع، إذ إنه لا يرى علاقة بين الإعراب والمعنى، «فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني، لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه لا يزول إلا بزواله»^(٢).

ويورد قطرب - توضيحاً لرأيه - جملاً تتفق في الإعراب وتختلف في المعنى،
مثل:

إن زيدا أخوك. ولعل زيدا أخوك. وكان زيدا أخوك.

(١) الزجاجي: الإيضاح في علل النحو.

تحقيق د. مازن المبارك. دار النفائس. بيروت. لبنان. ط ٥، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م). ص ٦٩.

(٢) السابق ص ٧٠.

كما يجيء بجمل تختلف في الإعراب وتنفق في المعنى، مثل: ما زيد قائماً. وما زيد قائم. وما رأيت منذ يومين، ومنذ يومان، أى بينى وبين لقائه يومان. ومدة فراقه يومان^(١).

ولا تنفق مع قطرب فيما أورده من اتفاق فى إعراب جمل النوع الأول واختلافها فى المعنى. إنما الصحيح أنها تختلف فى الإعراب وتختلف فى المعنى، وذلك باختلاف وظيفة الحرف الناسخ فى كل جملة، الذى يؤدى إلى تساين المعنى، فعلى الرغم من أن هذه الجمل - وأشباهاها - تنفق من حيث تصنيفها العام، إذ هى جمل اسمية منسوخة بيان أو إحدى أخواتها، إلا أن كل جملة تختلف عن نظيرتها تبعاً لاختلاف الحرف الناسخ.

أما النوع الثانى الذى أورده، وهو الجمل التى تختلف فى الإعراب وتتنفق فى المعنى، فاختلاف الإعراب فيها ناتج عن اختلاف وظيفة الحرف فى الجملة، فعلى الجملتين: ما زيد قائماً، وما زيد قائم، إنما يعود الاختلاف فى الإعراب إلى إعمال «ما» أو إهمالها، وكذلك الجملتان: ما رأيت منذ يومين، ومنذ يومان، اللتان تختلفان فى الإعراب باختلاف وظيفة «منذ»، أى بمعاملته على أنه حرف أو على أنه اسم.

ونضيف إلى ما سبق أننا قد نجد اتفاقاً فى المعنى العام بين عدد من الجمل، على الرغم من اختلافها فى الإعراب، ويتضح الأمر بجلاء فى التراكيب التالية:

• كان زيد ضاحكاً.

• حضر زيد ضاحكاً.

• وجدت زيداً ضاحكاً.

فعلى الرغم من تشابه هذه التراكيب فى المعنى - ولا نقول تطابقها التام - من

(١) إذا ورد بعد (مُد)، و (مُنذ) اسم مجرور، فكل منهما حرف جر. أما إذا كان ما بعدها اسماً مرفوعاً، فكل منهما ظرف، والاسم الواقع بعده فاعل للفعل محذوف تقديره (كان). وقيل إن (مُد) فى قولك (مد يومان) محل المبتدأ، و (يومان): خبر. وذكر بعضهم أن (مد) أصلها (منذ).

حيث إن المعنى فيها يشير إلى «كون»، أو «حضور»، أو «وجود» زيد في حالة معينة إلا أن الإعراب يختلف فيها على النحو التالي:

- التركيب الأول : فعل ماض (ناقص) + اسمه + خبر.
- التركيب الثاني: فعل ماض (تام) + فاعل + حال.
- التركيب الثالث: فعل ماض (ينصب مفعولين) + فاعل + مفعول أول + مفعول ثان.

وإذا كنا ننفي عن التراكيب السابقة التماثل التام في المعنى، فإن هذا يعود - في المقام الأول - إلى اختلافها في الإعراب، مما يؤكد أهمية الإعراب في إيصال المعنى، وفي تغييره، إلى الحد الذي يجعل أولهما قرينا للآخر ودالا عليه.



المبحث الثامن:

التنغيم والتغير الصوتي

من السهل على المرء أن يقوم بتحويل اللغة المكتوبة المقروءة إلى لغة منطوقة مسموعة، والثابت أن العكس ليس صحيحاً؛ إذ إنه يصعب - بل يستحيل أحياناً - تحويل بعض التراكيب المنطوقة إلى أخرى مكتوبة، إلا أن يُستعان في ذلك ببعض التراكيب الإيضاحية، أو الوصفية، أو الاعتراضية، تميماً للمعنى بغية النقل الحرفي الكامل لما هو منطوق، وتحويله إلى تراكيب لغوية مكتوبة. ويعود ذلك - في المقام الأول - إلى التنغيم Intonation، أو النبر Stress، أو السكتات والوقفات Pauses، أو الهمس Whispers، كما يعود إلى ما يصاحب اللغة المنطوقة من حركات إشارية باليدين أو بالعينين، أو من تعبيرات على الوجه.

فجملة «ستقوم أنت بهذا العمل» جملة خبرية، بالنظر إلى سياقها التركيبي، ولكننا حين نسمعها بطريقة فيها الصرامة والحزم والضغط على الحروف والكلمات، بحيث يبدو فيها النبر واضحاً... نستطيع أن نقول إنها أمر، وليست خبراً. ولو قال طفل لأمه: No milk! بتنغيم معين ينبيء عن سؤاله عن وجود اللبن، فإنه سيختلف المعنى حين تقال الجملة ذاتها بطريقة مخالفة فيها معنى الإخبار عن عدم وجود اللبن، كأن تقولها أم - مثلاً - لابنها حين يسألها عن وجود اللبن؛ ففي الحالة الأولى صارت جملة: No milk! مساوية في المعنى لجملة: Don't you have milk? التي تتضمن معنى: I want milk، وفي الحالة الثانية كان معناها: No milk.

ويعنى ذلك أن التنغيم يؤدي وظيفة نحوية في السياق التركيبي للجملة، ويبدو ذلك واضحاً في التراكيب الاستهلامية، ونظائرها الشرطية، وفي الإغراء والتحذير، وكذلك في النفي. ولا تقتصر أهمية التنغيم على دوره في النصحي، بل إن له

الأهمية ذاتها فى العمامة ؛ فالتعبير «يا أحنى . . .» من الممكن أن يحمل الدلالات التالية:

- المودة والإخاء .
- العتاب واللوم .
- الخلو من أى مضمون دلالى ، وذلك حين يكون لغوا فى حشو الكلام .
-

ويعتمد تحديد الدلالة المقصودة - بالإضافة إلى السياق والموقف - على التنغيم الذى يؤدي دوراً مهماً فى إكساب التراكيب الخبرية بعض المضامين الدلالية التى كانت لها فى الأصل ، فالجملة الخبرية «فى الحديدقة لص» يمكن أن تتحول إلى صورة من صور التحذير إذا اعتمدت على التنغيم التحذيرى ، ونعنى به أن يأتى التنغيم فى السياق دالا على التحذير . ويمكننا أن نقول إنه إلى جانب ما نسميه التنغيم التحذيرى ، هناك التنغيم الشرطى ، والتنغيم الاستفهامى . . .

ويبدو التنغيم واضحاً فى التراكيب التى تعتمد على الحذف ، وهى نوعان:

النوع الأول: تراكيب لا تحتاج إلى تنغيم لإبراز ما هو محذوف ، كما فى التراكيب الاسمية التى يحذف فيها خبر «لا» النافية للجنس ، مثل: «لا شك» ، و «لا ريب» و «لا جدال» . . . وكذلك فى خبر «لولا» الشرطية التى يحذف خبرها .

النوع الثانى: تراكيب تحتاج إلى تنغيم لإبراز ما هو محذوف ، وهى التراكيب التى يجوز فيها الحذف والذكر ، كما فى حذف جملة جواب الشرط فى التركيب الشرطى ، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾^(١) ، أى فافعل^(٢) . ويمثل النوع الثانى أيضاً حذف همزة

(١) سورة الأنعام الآية: ٣٥ .

(٢) انظر: معانى القرآن للقراء .

الاستفهام كأن يقول حبيب لحبيبه: «تلوميني على خنقات قلبي»، فيصح أن يكون التقدير: «أتلوميني...». ويكون استفهاما، ويصح ألا يكون ثمة محذوف، ويصح التركيب خبرا تقديره: أنت تلوميني. والفصل في تحديد كون هذا التركيب استفهاما أم خبرا هو التنغيم.

ويعتري بعض الأصوات تغيرٌ يُخرج الصوت من صورته الصحيحة إلى صورة أخرى مخالفة. ولما كانت الكلمة تتكون من أصوات، ودلالاتها الأصلية إنما تتحقق بتركيب تلك الأصوات في نظام وترتيب معينين، فإنَّ تغير صوت معين، وتحوله إلى صوت آخر، لسبب ما، يشبه عملية استبدال صوت بنظير له في الكلمة.

والحرف الهجائي هو أصغر وحدة صوتية Phoneme في الكلمة. وهذه الوحدة الصوتية إنما ينجرّ عن استبدال وحدة صوتية أخرى بها تغيرٌ في المعنى؛ فالفعل «مال» إذا استبدلت بميمه وحدة صوتية أخرى، ولتكن «القاف»، ظفرنا بفعل آخر، وهو «قال»، مغاير تماما للفعل الأول، وتحول صوت القاف في كلمة «قال» إلى «كاف» يتبعه تغيرٌ في دلالة الكلمة، وشبه بذلك «الطاء» في «بطر»، التي إذا تحولت إلى «تاء» صارت الكلمة «بتر». وبدهى أن عدد الوحدات الصوتية (الفونامات) في أية لغة محدود، كما أن هذه الوحدات تختلف من لغة إلى أخرى.

وثمة أمران ينبغي الإشارة إليهما، أولهما: أن هذا التغير يبدو بصورة واضحة في حروف الإطباق، وهي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء. فنطق هذه الأحرف دون إطباق يحولها بترتيبها إلى: سين، ودال، وتاء، وذال^(١) (أو زاي). وثانيهما: أن هذا التغير إنما يتحدد فقط في مجال الخطاب دون مجال الكتابة، ويظهر جليا في هذا المجال الخطابى عند الإناث، أكثر من ظهوره عند الذكور، كما أنه يتبدى في نطق سيدات المجتمع الراقى.

وبنية الكلمة - سواء أكانت اسما أم فعلا أم حرفا - إنما تتكون من

(١) انظر: د. محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة.

دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٢ (١٩٧٨ م). ص ٣٦.

انتظام الحروف في ترتيب معين، وهذه الحروف تسمى «الحروف الهجائية» Letters of Alphabet، كما تسمى أيضاً «حروف المباني»، إضافة إلى أنه يطلق عليها «حروف المعجم».

وعدد الحروف الهجائية تسعة وعشرون حرفاً، وهي بحسب مخارجها:

الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والقاف،
والكاف، والجيم، والشين، والياء، والضاد، واللام، والراء، والنون، والطاء،
والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء،
والميم، والواو.

وترجع تسمية حروف المعجم بهذا الاسم إلى «أن الحرف حد منقطع الصوت
وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه. ويجوز أن تكون سُميت حروفاً لأنها جهات
للكلم ونواح كحروف الشيء وجهاته»^(١). وهذه الحروف مبنية على الوقف، أي أن
الناطق بها يمكن أن يقف على كل حرف منها بالسكون، فيقول: ألف، باء، تاء...
وهذه الحروف تذكر وتؤنث.

وقد رتب الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) الحروف العربية في كتابه «العين» ترتيباً
مغايراً، إذ إنه بدأ بالعين باعتبار أنها أقصى الحروف الحلقية، وهي: العين، والهاء،
والحاء، والخاء، والغين، والهمزة. وقد جعل الخليل ترتيب الحروف حسب
مخرجها من الحلق، وترتيبها عنده كما يلي:

العين، والحاء، والهاء، والخاء، والغين، والقاف، والكاف، والجيم، والشين،
والضاد، والصاد، والسين، والزاي، والطاء، والدال، والثاء، والظاء، والذال،
والثاء، والراء، واللام، والنون، والفاء، والباء، والميم، والياء، والواو، والألف.

أما سيويه (ت ١٨٠هـ) فقد رتب تلك الحروف ترتيباً مختلفاً، فهي عنده:

(١) ابن جني: سر صناعة الإعراب.

تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. مطبعة الحلبي بمصر، ط ١، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م)، ج ١، ص ١٦.

الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والخاء، والغين، والقاف، والكاف، والضاد،
والجيم، والشين، واللام، والراء، والنون، والطاء، والذال، والتاء، والصاد،
والزاي، والسين، والظاء، والذال، والتاء، والفاء، والباء، والميم، والياء، والألف،
والواو.

والترتيب الشائع للحروف الهجائية يبدأ بالألف وينتهى بالياء، ويرد هكذا:
الف، باء، تاء، ثاء... وقد شاع فى معاهد العلم أن ثمة حرفا يجىء بين «الواو»
و «الياء» هو «لام ألف»، وكان هذا الحرف مركب من حرفين، هما: «اللام»،
و «الألف». واللافت للانتباه - هنا - أنه لا ترد أية إشارة - من قريب أو من بعيد -
إلى وجود الهمزة ضمن هذه الحروف الهجائية.

وينبغى - بدايةً - أن نشير إلى أمر مهم، وهو أن أول الحروف الهجائية هو
الهمزة، أما ما شاع واشتهر على أنه «لام ألف» فهو خطأ شائع؛ إذ إن المراد به هو
الألف اللينة التى تأتى ساكنة دائماً، ويكون ما قبلها مفتوحاً. وهذه الألف لا تجىء
مطلقاً فى أول الكلمة، وإنما قد ترد فى وسط الكلمة، مثل: قال، ومال، وباع، وقد
تكون فى آخرها، مثل: دعا، ونما، وعصا، وخلا، وعدا، ولا. وقد تتلب هذه
الألف ياء، كما فى: سعى، وموسى، وحتى.

ويعود سبب تركيب هذه الألف مع اللام إلى أنه لما كان من العسير نطق هذه
الألف اللينة بمفردها، لأنها حرف ساكن، ويدهى أنه لا يمكن البدء بالساكن، فقد
ركبت هذه الألف مع اللام، حتى يمكن النطق بها. ويعنى ذلك أن هذا الحرف هو
الألف اللينة مركبة مع اللام، وعلى ذلك فصحة نطق هذا الحرف «لا» بوزن «ما»^(١).

وترجع علة اختيار اللام دون غيرها من الحروف الهجائية لتركيبها مع الألف،
توصلاً إلى النطق بهذه الألف، إلى أن العرب لما كانوا قد توصلوا إلى نطق اللام
الساكنة فى «الرجل» و «الغلام» بألف الوصل، فإنهم قد عمدوا إلى اختيار اللام حتى

(١) انظر: سر صناعة الإعراب ج ١. ص ٤٩.

يمكن نطق هذه الألف الساكنة، وذلك ضرب من المعاوضة بين الحرفين^(١)، أى أن ذلك يعد نوعاً من التماثل في تبادل الحروف. وقد لا يكون ثمة مغزى بعينه في اختيار اللام دون غيرها من الحروف، وإنما كان المراد الإتيان بأى حرف متحرك للتوصل إلى نطق الحرف الساكن، وهو الألف، وكان ممكناً أن يتركب الألف مع الباء، أو التاء، أو السين، أو غيرها من الحروف.

إذن يمكننا أن نقول إن هذه الألف الساكنة تختلف عن الهمزة المرسومة على الألف هكذا «ا»، فهذه الهمزة قد رسمت على الألف كى تستقيم صورتها، وللدلالة على أنها همزة قطع^(٢).

واستناداً إلى ما سبق يكون مجموع الحروف الهجائية - إضافة إلى الهمزة - تسعة وعشرين حرفاً. وينبغى أن نشير إلى أن المبرد (ت ٢٨٥هـ) لم ير أن للهمزة صورة ثابتة، فعدد حروف التهجى عنده ثمانية وعشرون حرفاً. وترجع علة عدم اعتداده بالهمزة إلى أنها تعترتها حالات خاصة، كالحذف، والتخفيف، وغيرهما. ونقول إن هذه الحالات لا تخرج هذا الحرف عن كونه حرفاً أصلياً من حروف المعجم؛ ذلك أن هناك حرفاً آخر يصيبها شيء من التغير، مثل: اللام، والنون، والواو، ومع ذلك فإن صورتها ثابتة في إطار حروف المعجم^(٣).

وثمة أحرف أخرى تلتحق بهذه الحروف التسعة والعشرين، وهذه الأحرف الملحقة بالحروف الأساسية والمتفرعة عنها إما أن تكون ناتجة عن تغيير في نطق حرف بعينه، وإما أن يكون نطقها واقعا بين حرفين من حروف المعجم.

وعدد هذه الأحرف الفرعية ستة أحرف، وهى:

١٠ - النون الخفيفة، أو النون الساكنة، ومخرجها من الخياشيم، نحو نون «مِنكَ»، و «عَنكَ»، وهى تختلف عن النون المتحركة فى أن المتحركة من حروف الفم،

(١) انظر: المرجع السابق ج ١ . ص ٥٠ .

(٢) انظر: مدخل إلى علم اللغة . ص ٣٣ .

(٣) انظر: سر صناعة الإعراب ج ١ . ص ٤٨ .

ويمكن تمييز النون الساكنة بإمساك الأنف حال النطق بها، إذ ستخرج تلك النون وبها اختلال^(١).

٢ - الهمزة بينَ بينَ، أو الهمزة المخففة، كما في قولنا: زَارَ اللَّيْثُ، والأصل: «زَارَ»، ويس، وأصلها «يس»، وبُؤَسَ، وهي في الأصل «بؤَسَ». أي أن هذه الهمزة المخففة تأتي مفتوحة، ومكسورة، ومضمومة ولكنها لا تنجى في أول الكلام.

وتخفيف الهمزة لهجة أهل الحجاز. ويرجع تخفيفها إلى أن الهمزة مخرجاها أقصى الحلق، فهي بذلك تعد أبعد الحروف، ومن هنا فثمة صعوبة لا تُنكر في نطقها.

ويضاف إلى هذا أنها من الأصوات المجهورة التي يمتنع النفس أن يجرى معها، ففيها إذن صفتا القوة والشدة.

٣ - الألف الممالة، أو ألف الإمالة، وهي «التي تجدها بين الألف والياء، نحو قولك في عالمٍ وخاتمٍ: عالمٍ وخاتمٍ»^(٢).

٤ - أَلْفُ التَّفْخِيمِ، ويكون نطقها بين الألف والواو، «نحو قولهم: سَلَامٌ عَلَيْكَ، وَقَامَ زَيْدٌ. وعلى هذا كتبوا الصلوة والزكوة والحيوة بالواو، لأن الألف مالت نحو الواو»^(٣).

٥ - الشين التي كالجيم، والشين حرف فيه «التفشي» ويعنى انتشار الصوت في الفم حين النطق به، وصيرورة الشين كالجيم يقلل فيه هذا التفشي، وذلك كأن نقول: جَرَبَ، والأصل: شَرَبَ.

(١) انظر: المبرد: المقنضب .

تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، المجلس الأعلى للشتون الإسلامية، (١٣٨٦هـ) ج١ . ص ٣٢٩ .

(٢) سر صناعة الإعراب ج ١ . ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق . ص ٥٦ .

٦ - الصاد التي كالزاي، وهذان الحرفان يشتركان في سمات بعينها، منها أنهما من أصوات الصفير التي تضم ثلاثة أحرف، هي: الصاد، والزاي، والسين، كما أنهما من الأصوات الرخوة التي يجرى الصوت معها. ويختلف الحرفان في أن الصاد من حروف الإطباق، التي يرتفع اللسان حال النطق بها إلى الحلق، أما الزاي فهي من حروف الانفتاح، وهو ضد الإطباق. كما أن أولهما، وهو الصاد، من الحروف المهموسة، وهي عشرة أحرف: الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء. أما ثانيهما، وهو الزاي فمن الحروف المجهورة، وهي عكس المهموسة.

وهذه الأحرف الستة الفرعية تستحسن في قراءة القرآن والشعر. وبإضافتها إلى الحروف التسعة والعشرين الأصلية يصير مجموع الحروف العربية خمسة وثلاثين حرفاً. وينبغي الإشارة إلى أن هناك حروفاً أخرى، وعددها ثمانية، لا تستحسن في قراءة القرآن، ولا في الشعر، وهي:

- الكاف التي بين الجيم والكاف.
- الجيم التي كالشين.
- الجيم التي كالکاف.
- الطاء التي كالتاء.
- الضاد الضعيفة.
- الصاد التي كالسين.
- الظاء التي كالتاء.
- الفاء التي كالباء^(١).

(١) انظر: ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة. شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعدي، مكتبة صبيح بالأزهر، القاهرة، (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م). ص ١٩.

وإذا أُضيفت هذه الحروف الثمانية إلى الحروف الخمسة والثلاثين صار مجموع الحروف العربية ثلاثة وأربعين حرفاً^(١)، منها تسعة وعشرون حرفاً أصلياً، وستة أحرف متفرعة عن الحروف الأصلية، وتستعمل في القرآن وفصيح الكلام والشعر، وثمانية أحرف غير مستحسنة وغير مقبولة.

ويكمن تساؤل عن علة استحسان الأحرف الستة وقبولها في قراءة القرآن وفي الشعر، وعدم ارتضاء الأحرف الثمانية أو استحسانها، بل واستنكارها، في قراءة القرآن والشعر وفصيح الكلام.

وينجلي الأمر حين ندرك أن الأحرف الستة المرضي عنها لم تنحرف انحرافاً حاداً عن صورتها الأصلية، فثمة صلة بين الحرف الأصلي ونظيره الفرعي. أما في الأحرف الثمانية غير المرضي عنها فنلاحظ أن منها أصوات الإطباق الأربعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، التي وردت دون إطباق؛ أي أنها قد تحولت من حالة الإطباق إلى الانفتاح. وقد أدى هذا التحول إلى انحراف الحرف عن صورته الأولى التي كان ينبغي أن يرد عليها. ونطق هذه الأحرف دون إطباق غير مقبول ولا مستحسن حتى في لغة الخطاب العادي أو في اللهجات العامية، بل إنه أمر مستنكر ومستهجن.

أما الأحرف الأربعة الأخرى، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والسجيم التي كالشين، والفاء التي كالباء، فنلاحظ أن فيها انتهاكا واضحا لصورة الحرف الأصلي، بحيث إن تحول الحرف الأصلي إلى نظيره الفرعي يخرج الكلمة عن معناها المعجمي ودلالاتها الحقيقية، ويكسبها دلالة أخرى مخالفة تماماً للدلالة الأصلية، كما نقول في «أجل» - وفيها نطق الجيم كالكاف - «أكل»، وكما نقول في «فَرِحَ» - وننطق الفاء كالباء - «بَرِحَ».. فهذا يؤدي إلى فهم المعنى على غير وجهه المراد، مما يفقد الرسالة المبلّغة وظيفتها الأساسية وهي الإفهام.



(١) عدد الحروف العربية كلها عند المسرد اثنان وأربعون حرفاً، لأنه أخرج الهمزة من جملة حروف المعجم.

المبحث الثالث:

الترادف

إذا كان الإنسان يهدف من خلال اللغة إلى الإبانة والإيضاح، ويسعى عن طريقها إلى إظهار مشاعره وانفعالاته، فإنه عندما يفعل ذلك يكون واعيا بمدلولات الألفاظ، وقد يدرك بدرجة ما الفروق الدلالية بين الألفاظ. ويستطيع المرء بأدائه اللغوى الذى تمرس عليه أن ينتج جملا عديدة لم يكن قد سمعها، أو قرأها، أو تعلمها من قبل، مما يؤدي إلى أن يستقر فى وعيه - أو لا وعيه - دلالة اللفظ، فيعرف أنه قد يكون ثمة ترادف - أو تقارب - بين لفظين، ولكن قد يختلف مدلول كل منهما عن الآخر. فقد يتقارب لفظا: «سيدة»، و «امرأة»، بل وقد يترادفان فى بعض السياقات، ولكننا لا نجد من يشك فيما يحمله لفظ «سيدة» من دلالات تشير إلى الوقار والاحترام، مما يخالف ما يومئ إليه لفظ «امرأة» من دلالات توحى بالأنوثة واكتمالها، تماما كما هو الحال فى لفظى: «سيد»، و «رجل»؛ إذ يدل أولهما على التسجيل والتعظيم، ويشير ثانيهما إلى دلالات ترتبط بالرجولة والعروءة^(١).

ولذا فإن اللفظ الواحد يختلف مدلوله من سياق إلى آخر؛ فالفعل «أحب» تختلف دلالاته إذا وُضع فى سياقات مختلفة، إذ يمكن القول: أحب وطنى، وأحب ابنتى، وأحب الصدق، وأحب الفاكهة، وأحب القراءة... وفى كل تركيب من التراكيب السابقة تختلف دلالة الفعل عن غيره من التراكيب.

(١) يلفت الانتباه - فى هذا المقام - شيوع لفظى: رجل، وامرأة، (وجمعهما) فى عناوين الروايات العربية، بعكس لفظى: سيد، وسيدة، (وجمعهما).

انظر: د. طه وادى، وحسن سرور: بيلوجرافيا الرواية العربية.

مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. العدد ٨٨ أكتوبر ١٩٨٨، الصفحات من ٥٨ - ٦٦.

ونحن أيضاً يمكننا أن نقول:

- السيارة أسرع من الدراجة.
- القطار أسرع من السيارة.
- الطائرة أسرع من القطار.
- القطار أسرع من الدراجة.
- الطائرة أسرع من السيارة.

ففي الجمل السابقة هناك مقارنات، وبدهى أن المقارنة بين شيء وآخر تتطلب وجود سمة مشتركة أو عنصر اتفاق - أو أكثر من سمة أو عنصر - بين الشيئين موضوع المقارنة، فنحن، مثلاً، نستطيع أن نصف المرأة بأنها جميلة، وكذلك الورد، ولكننا لا نستطيع أن نقول: إن المرأة أجمل من الورد، أو إن الورد أجمل من المرأة، على الرغم من أننا نصف كل منهما بالجمال، وهذا يرجع إلى أن مدلول الجمال عند المرأة يخالف نظيره في الورد. ويعنى ذلك أن دلالة الكلمة لا تتحدد إلا في إطار سياقها. قد يكون هناك تحديد منفصل لها في إطارها الذاتى الخاص، ولكن دلالتها النهائية لا تتحدد إلا في إطار السياق الذى يحتويها، ولذلك نعتقد أنه ليس من الصواب البحث عن معنى الكلمة المفردة في سياق التركيب، يجب أن نعرف أن المعنى المفرد قد اعتراه شيء من التغيير بمجرد دخوله في السياق^(١). فلفظ «الإصلاح»، مثلاً، تختلف مدلولاته إذا وُضع في سياقات أو تراكييب مختلفة، فنحن نقول: الإصلاح الاقتصادى، وإصلاح الخطأ، وإصلاح الكرسي، والإصلاح بين المتخاصمين... كذلك فإن الفعل «أكل» من الممكن أن يكون بمعنى نهب أو سرق في قولنا: أكل مال اليتيم.

(١) د. مهدي صالح السامرائي: المجاز في البلاغة العربية.

دار الدعوة، حماة، سورية (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م). ص ٢١٩.

ونحن في إطار الوصف يمكننا أن نصف الطقس بأنه بارد، كما يمكننا أن نصف الحرب بأنها باردة، وهو تعبير مستحدث، وإذا كان هناك «طقس حار» في مقابل «طقس بارد»، وبينهما «طقس دافئ أو معتدل»، فهل يمكننا أن نقول: الحرب الساخنة، في مقابل الحرب الباردة، وإذا كانت الحرب الساخنة هي الحرب بالأسلحة والحرب الباردة هي الحرب بالكلمات، فما هي الحرب الدافئة أو المعتدلة؟.

ومن هنا نقول إن ثمة تضمينا (Connotation) في المترادفات أو الألفاظ المتقاربة، فقد يكون في كل لفظ دلالات فرعية إضافة إلى دلالاته الأصلية، كما أن كل لفظ يحوى - غالباً - شحنات دلالية تختلف عما يحويها غيره، وعلى الرغم من أن الترادف التام Complete Synonymy ليس مستحيل الحدوث، إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون قانوناً مطلقاً يصح تطبيقه على كل الفاظ اللغة.

وقضية الترادف من القضايا التي شغلت القدماء والمحدثين على السواء، وكان لها مؤيدون ومنكرون، فمنهم من أكد على وجود الترادف بمعناه الشامل فسي الألفاظ اللغة، ومن هؤلاء: ابن جنس (ت ٣٩٢هـ)، وابن سيده (ت ٤٨٥هـ). ومنهم من أنكر وجود هذا الترادف التام الكامل، باعتبار أن ثمة شحنة دلالية في كل لفظ لا توجد في نظيره، ومن هؤلاء: ابن الأنباري (ت ٢٣٧هـ)، وابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، فهؤلاء - وغيرهم ممن تبعهم في قولهم - لم ينكروا إمكانية وقوع الترادف بمعناه العام، ولكنهم نبهوا إلى وجود فروق دقيقة بين المترادفات (١).

ونحن نميل إلى هذا الرأي الأخير، فلا يستطيع منصف أن ينكر وجود الترادف في العربية بمعناه العام، فمن ينكر مثلاً، أن ثمة ترادفاً تاماً بين الأفعال: وَصَحَّ.

(١) انظر: د. غازي مختار طليحات: نظرات في علم دلالة الألفاظ عند أحمد بن فارس اللغوي. حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت، الحولية الحادية عشرة (١٤١٠ - ١٩٩٠). ص ٥٢.

شَرَحَ . بَيْنَ . فَسَّرَ . فَصَّلَ (١) . ولكن قد ينكر كثيرون وجود ترادف تام بين مريض وعميد، إذ لو كان اللفظان مترادفين ترادفا كاملا وتاما، لكان بإمكاننا أن نستبدل لفظ «مريض» بلفظ «عميد» في البيت المشهور الذي لا يعرف قائله:

يَلْمُوْنِي فِي حُبِّ لَيْلَى عَوَازِلِي
وَلَكِنِّي مِنْ جِبْهَاتِ لَعْمِيْدٍ

فلو قلنا: «ولكنني من حبها لمريض»، ما ظفرنا بالدلالات ذاتها، ففى لفظ «عميد» - وهو من هَذِهِ العَشَق - من الدلالات وظلال المعاني ما ليس فى لفظ «مريض». ويشبه ذلك اللفظان: «ill»، و«Sick» فعلى الرغم من أن المعنى العام واحد، إلا أنهما يختلفان من حيث اختلاف دلالة كل منهما فى السياق الخاص، ولذلك تستخدم «ill» بدلالة أخرى، كما فى التعبير:

«Bird of ill omen»، كما أن هذا اللفظ «ill» أكثر ملاءمة فى الخطاب المهذب Polite Discourse من نظيره «Sick». ومن هذا المنطلق يذهب أَلِستون William P. Alston إلى أن الترادف التام غير ممكن، وأنه يستحيل وجود لفظين يترادفان ترادفا كاملا، وأن تحقق هذا الترادف فيه - على الأقل - صعوبة كبيرة (٢).

ونخلص من هذا كله إلى الإقرار بوجود الترادف بمعناه العام الشامل، إلا أن هناك فروقا دقيقة بين معظم المترادفات، مما يعنى الاعتراف بأن الترادف التام الكامل ليس مستحيلا، ولكنه قليل، «فهو نوع من الكماليات التى لا تستطيع اللغة أن تجود بها فى سهولة ويسر. فإذا ما وقع هذا الترادف التام، فالعادة أن يكون ذلك لفترة

(١) انظر: الرماني: الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى.

تحقيق: د. فتح الله صالح على المصرى.

دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة ج. م. ع. ط ١ (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م). ص ٧٤، ٧٥.

(2) William P. Alston: "Philosophy of language". library of Congress, U. S. A.

1964. p. 44.

قصيرة محدودة ؛ حيث إن الغموض الذي يعترى المدلول، والألوان أو الظلال المعنوية ذات الصبغة العاطفية أو الانفعالية التي تحيط بهذا المدلول لا تلبث أن تعمل على تحطيمه وتقويض أركانه،^(١)

* * *

وقد أفاض القدماء والمحدثون في الحديث عن أسباب وقوع الترادف في العربية، ويمكن إجمال تلك الأسباب فيما يلي:

١ - اختلاف اللهجات بين القبائل، كأن يوجد شيء ما، فتطلق قبيلة معينة اسماً بعينه على هذا الشيء، وتسميه قبيلة أخرى باسم آخر، ويعرف عند ثالثة باسم ثالث... وهكذا تتعدد الأسماء للشيء الواحد. ويتضح هذا في عصرنا الحاضر، فالهاتف المحمول يطلق عليه: المحمول، ويسمى كذلك (الموبايل) Mobile، كما يسمى في بعض البلاد: الجوّال أو التّقال، ويسمونه في بلاد المغرب Portable، أي الممكن حمله، أو المحمول.

٢ - أن يكون للشيء الواحد في الأصل اسم واحد، ثم يوصف بصفات مختلفة، باختلاف خصائص ذلك الشيء، وإذا بتلك الصفات تستخدم في يوم ما، استخدام الشيء، وينسى ما فيها من الوصف، أو يتناساه المتحدث باللغة^(٢). ومما يروى في هذا أن أبا علي الفارسي (ت ٣٧٦هـ) يقول: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسم أبو علي، وقال: ما أحفظ إلا

(١) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة.

ترجمة: د. كمال بشر.

مكتبة الشباب، المنيرة، القاهرة (١٩٧٥). ص ٩٧.

(٢) د. رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية.

مكتبة الخانجي بالقاهرة - دار الرفاعي بالرياض، ط ٢، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م). ص ٣١٨، ٣١٩.

اسما واحدا، وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المهند والصارم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات، وكان الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة^(١). فنحن - إذن - أمام رأيين: رأى يرى أن للشئ اسما واحدا، وما عداه من ألقاب إنما هي صفات له، حتى وإن كانت ألقاها مختلفة، فالمعنى في النهاية واحد. ورأى آخر يرى أن كل اسم أو صفة إنما يحمل دلالة تخالف الدلالة الأخرى. وما يجرى على الأسماء يجرى مثله على الأفعال، ولذا فرق البعض بين قعد وجلس، وقرأ وتلا، وأقسم وحلف.

وقد شغل القدماء بالتفرقة بين الألفاظ المترادفة، فألف عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت ٣٢٧هـ): (الألفاظ الكتابية)^(٢)، وصنع قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ): (جواهر الألفاظ)^(٣) وكتب الرُّماني (ت ٣٨٤هـ): (الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى)^(٤)، وألف أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ): (الفروق اللغوية)^(٥). كذلك كان للمُحدِّثين إسهاماتهم في هذا المجال؛ إذ ألف الأب رُفائيل نخلة اليسوعي: (قاموس المترادفات والمتجانسات)^(٦)، وأعد وجدى رزق غالى: (معجم المترادفات العربية الأصغر)^(٧).

(١) السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها.

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار الحرم للتراث، القاهرة، ط ٣، (د. ت)، ص ٤٠٥.

(٢) عن بطبعه ونشره: محمود توفيق.

مطبعة التوفيق الأدبية، (١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م).

(٣) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

(٤) تحقيق: د. فتح الله صالح على المصري.

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط ١، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).

(٥) ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسي.

دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. د. ت.

(٦) دار المشرق، بيروت، ط ٣، (١٩٨٣ م).

(٧) مكتبة لبنان، بيروت، ط ١، (١٩٩٦ م).

٣ - التغيير الصوتي للكلمة، إذ يحدث أن يصيب التغيير صوتا من أصوات الكلمة، فتتسا كلمة أخرى مغايرة فسى النطق للأولى، والمعنى فيهما واحد، فيتجاور اللفظان، ويصفان ضمن المترادفات. ومثال ذلك: لَزِقَ وَلَصِقَ وَلَسِقَ، ومنه: اللازب واللاتب واللاصق، أى اللازق. ويقولون: ضربة لازم ولازب؛ بإبدال الباء ميما لتقارب المخرج، (فمخرج كليهما من بين الشفتين، وكلاهما مجهور، إلا أن الباء مجهور شديد، والميم مجهور متوسط)، واللازب: الثابت.

٤ - الاقتراض من اللغات الأخرى، نحو: يم (آرامى): بحر، واستبرق (فارسي): الديباج الغليظ، وسراى (تركى) قصر، وبستان (فارسي): حديقة، ومشكاة (حبشى): كوة أو نافذة، وطابور (تركى): صف.

٥ - التطور الدلالى، ويتضح ذلك فى الألفاظ التى توضع فى الأصل لمعنى خاص، ومع التطور الدلالى يصبح المعنى عاماً. ومثال ذلك قولهم: «رفع عقيرته، أى صوته، وأصل ذلك أن رجلاً عَقَرَتْ رِجله فرفعها، وصاح؛ فقبل بعد لكل من رفع صوته: رفع عقيرته»^(١). ومن ذلك أيضاً أنهم «يقولون بنى الرجل بامرأته إذا دخل بها، وأصل ذلك أن الرجل كان إذا تزوج يُبنى له ولأهله خباء جديد، فكثير ذلك حتى استعمل فى هذا الباب»^(٢). كما يتجلى التطور الدلالى فى الألفاظ الموضوعية فى الأصل لمعنى عام، ثم تستعمل هذه الألفاظ بدلالة خاصة؛ كما فى «لفظ السبت، فإنه فى اللغة الدهر، ثم خُصَّ فى الاستعمال لغةً بأحد أيام الأسبوع، وهو فرد من أفراد الدهر»^(٣). كما يظهر هذا العامل جلياً فى المجازات، «فقد تستعمل بعض الكلمات استعمالاً مجازياً، يطول

(١) المزهر: ٤٢٩/١.

(٢) السابق: ٤٣٠/١.

والخباء: بيت يصنع من صوف أو وبر أو شعر. والجمع: أخية.

(٣) السابق: ٤٢٧/١.

العهد عليه، فيصبح حقيقة... فالرحمة مثلا قد اشتقت (من الرَّحِم) موضع الولد... فلعل الرحمة في الأصل هي عملية النسل من الأرحام، ثم استعملت في قديم الزمان عن طريق المجاز في الصلة بين الذين يولدون من رحم واحد. وقد تقادمت العهود على هذا المعنى المجازي حتى أصبح حقيقة، وبهذا نشأ الترادف بينها وبين كلمة مثل (الرأفة)^(١).

وقد وضع علماء العربية شروطا، لا يتحقق الترادف إلا بها، وتمثل هذه الشروط فيما يلي:

- ١ - الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقا تاما^(٢)، بحيث يمكن أن تحل إحدى الكلمتين محل الأخرى وتؤدي معناها.
- ٢ - «الاتحاد في البيئة اللغوية»^(٣)، أي أن تكون «اللغة المشتركة أو الفصحى الأدبية بيئة واحدة، و... كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات بيئة واحدة»^(٤).
- ٣ - «الاتحاد في العصر»^(٥)، فلا يجب قياس ما ورد في عصر ما من كلمات بعصر آخر ليست ثمة صلة بينهما.
- ٤ - «إلا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للفظ الآخر، فحين نقارن بين الجثل والجفل، بمعنى النمل، نلاحظ أن إحدى الكلمتين يمكن أن تعد أصلا، والأخرى تطور لها»^(٦).

(١) د. إبراهيم أنيس؛ في اللهجات العربية.

مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٨، (١٩٩٠ م). ص ١٨٣، ١٨٤.

(٢) في اللهجات العربية. ص ١٧٨.

(٣) فصول في فقه العربية. ص ٣٢٢.

(٤) السابق. ص ٣٢٣.

(٥) في اللهجات العربية. ص ١٧٩.

(٦) السابق. ص ٣٢٣.

وأخيراً، فإن الترادف بمعناه العام موجود بين ألفاظ اللغة، ويروى في هذا أن
 واصل بن عطاء زعيم المعتزلة (٨٠ - ١٣١هـ) كان يتجنب الراء في خطابه، إذ كان
 ألتغ الراء، فكانت الرسائل تأتيه، فيقرأها، فيستبدل بالكلمات التي فيها حرف الراء
 كلمات أخرى تخلو منه وتؤدي معناها وتقوم مقامها، أما الترادف الكامل والتام فإنه
 قليل، ولكنه ليس مستحيل التحقق.



المبحث الرابع:

الاشتراك اللفظي

تعد قضية المشترك اللفظي من القضايا الدلالية التي أفاض في دراستها القدماء والمحدثون على السواء، ويقصد بالاشتراك اللفظي دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى، ومثال ذلك:

الحلَّق: حلق الشعر.

والحلَّق: مساع الطعام والشراب في المرىء.

والحلَّق: الشؤم.

ومثاله أيضاً:

الخريف: أحد فصول السنة.

والخريف: الساقية.

والخريف: الرُّطْب المَجْنِيُّ.

وإذا كان اللغويون قد اختلفوا حول قضيتي الترادف والتضاد، ذلك أنه قد وُجد من أنكر هاتين الظاهرتين إلى جانب من أيدَّ وجودهما في اللغة، فإنه ليس ثمة خلاف بين اللغويين على وجود ظاهرة المشترك اللفظي، إلا أن الإيمان بوجود تلك الظاهرة يتفاوت بين هؤلاء اللغويين، فمنهم من توسع في مفهومها وبالغ في وجودها، ومنهم من ضيَّقَ وحصر ما يعد من المشترك اللفظي في إطار ألفاظ قليلة، باعتبار أن هناك ألفاظاً تستخدم استخداماً مجازياً، ولذا فهي تعد من المجاز وليست من المشترك اللفظي في شيء^(١).

(١) انظر: نورة يوسف فخرو: روميات أبي فراس . معجم ودراسة دلالية .

مؤسسة دار الريحاني للطبع والنشر، بيروت - لبنان . ط / (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) . ص ٣٥٨ .

وكانت نظرة القدماء إلى هذه القضية ورؤيتهم في إمكانية تعدد دلالات اللفظ الواحد تسمان بقدر ما من التسامح، ذلك أنهم لم يلحظوا أنه قد يكون للفظ الواحد معنيان: أحدهما حقيقي، والآخر مجازي، وعليه «فلا يصح أن يعد هذا من المشترك اللفظي في حقيقة أمره»^(١)، فلفظ «الليث» - مثلاً - يعني «الأسد»، ويعنى أيضاً «الشجاع»، وبين الداليتين صلة غير خافية، فالدلالة الثانية مجازية، أما إذا قيل إن من معاني الليث: العنكبوت^(٢)، وجب إدخال اللفظ في عداد المشترك اللفظي، لأنه ليس ثمة صلة بين هذا المعنى وسابقه.

ويرتبط اتساع دائرة المشترك اللفظي باتساع متطلبات العصر ومتغيرات الحياة التي تضيف إلى الألفاظ دلالات جديدة لم تكن موجودة من قبل، من ذلك مثلاً لفظ «الفرقة» الذي تشير دلالاته الأصلية إلى الطائفة من الناس، ولكن يلاحظ أن هذا اللفظ اكتسب دلالات أخرى ذات صلة وثيقة بحاجات العصر، فهو مصطلح رياضي بمعنى الفريق Team، ومصطلح عسكري بمعنى دورة تدريبية، وهو أيضاً مصطلح تعليمي جامعي يقابل مصطلح «الصف» في مراحل التعليم العام.

كذلك هناك لفظ «المخالفة»، الذي يستخدم في المجال الرياضي - في بعض البيئات اللغوية العربية - بمعنى الخطأ Fou، وهو يستخدم أيضاً في المجال الشرطي والمروري، ولفظ «المقابلة» الذي تشير دلالاته العامة إلى التقابل أو اللقاء، وهو أيضاً مصطلح بلاغي يعني «إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»^(٣)، ويستخدم اللفظ الآن في بعض البيئات اللغوية بمعنى المباراة Match.

(١) د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ .

مكتبة الأنجلو المصرية . ط ٤ (١٩٨٠ م) . ص ٢١٣ .

(٢) القاموس المحيط: باب الناء، فصل اللام . ص ٢٢٥ .

(٣) أبو هلال العسكري: كتاب الصنائع .

تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط ١ (١٩٨١ - ١٩٨٠ م) . ص ٣٧١ .

واللافت للنظر أنه يختلف التخاطب باختلاف المستويين البيئي والثقافي في المستوى العامي للكلام، وتختلف تبعاً لذلك دلالة اللفظ من بيئة إلى أخرى وتوسع دائرة استعماله أو تضيق، فمثلاً لفظ مصر Egypt يعني في المجتمع الخارجي: القطر المصري A. R. E، والكلمة عند أهل الريف في مصر تعني القاهرة Cairo، بينما لو قال أحدهم - ممن يعيش في ضواحي العاصمة - إنه يريد الذهاب إلى مصر لعرفنا أنه يقصد وسط المدينة Toun Center.

وتعود نشأة المشترك اللفظي إلى الأسباب التالية:

١ - المجاز: وفيه يتحول استعمال الكلمة من معناها الحقيقي إلى معنى مجازي. ويتضح ذلك في كلمة (اليد)، التي تعني في الأصل الكف، ثم صارت الكلمة تدل على النعمة والإحسان؛ لأنهما يكونان بالإعطاء، الذي تكون وسيكته اليد. بقول الشاعر:

له على أيادٍ لست أكفُرُها

وإنما الكفرُ ألا تُشكّرَ النعمَ (١)

كما أن الكلمة تعني أيضاً بطريق المجاز: القوة، والسلطان، والطاعة، والقدرة...

٢ - الاقتراض من اللغات الأخرى، إذ يحدث أن يدخل اللغة ألفاظٌ أعجمية، تشبه في صورتها ونطقها ألفاظاً أخرى في اللغة الأصلية المقترضة، فينشأ عن ذلك كلمتان متحدتان في النطق مختلفتان في المعنى، وتسمى كل واحدة منهما في الأصل إلى لغة مختلفة، كما رأينا في كلمة (كلية)، التي هي في الحقيقة كلمتان، إحداهما سامية الأصل تعني العموم والشمول، وثانيتها ترجع إلى

(١) انظر: لسان العرب . مادة: بدى . ص ٤٩٥٢، ٤٩٥٣ .

الأصل الإنجليزي College التي تعنى تلك المؤسسة العلمية التي تنضوى تحت لواء الجامعة»^(١).

٣ - اختلاف اللهجات، حيث يكون للفظ الواحد معنى بعينه عند قبيلة ومعنى آخر مغاير له عند قبيلة أخرى، فالكوثر: «النهر»، والكوثر: «الغبار بلغة هذيل... والربيع: ما تعتلفه الدواب من الخضر، والربيع من الأزمنة بعد الشتاء، والربيع بلغة أهل الحجاز: الساقية الصغيرة تجري إلى النَّخْل، والجمع: الربعان»^(٢).

٤ - التطور الصوتي، إذ قد يحدث أن «تغير بعض أصوات الكلمة، فتستطبق مع كلمة أخرى أصيلة لم يصبها مثل هذا التغير»^(٣)، ومثال ذلك كلمة (دعم)، إذ يقال دَعَمَ الشيءَ يدعمه دعما: مال فأقامه... والدعم: القوة والمال»^(٤)، والدعم كذلك: الطعن والرمى بشيء، «وأصل الكلمة بالمعنى الثاني، هو (دَحَم)، بالحاء، فقد تطورت هذه الحاء، وجهرت، بسبب مجاورتها للبدال المجهورة، فقلبت إلى نظيرها المجهور، وهو العين، فصارت: (دعم)، وأصل ذلك بكلمة: (دعم)، بمعنى قوى، فنشأ الاشتراك اللفظي في هذه الكلمة»^(٥).



- (١) د . عاطف مذكور: علم اللغة بين القديم والحديث .
دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة، (١٩٨٦) . ص ٢٢٢ .
- (٢) د . فوزى مسعود: المتجدد في اللغة . دراسة لغوية .
مطبعة حسان، القاهرة، (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) . ص ٨١، ٨٢ .
- (٣) علم اللغة بين القديم والحديث . ص ٢٣١، ٢٣٢ .
- (٤) لسان العرب . مادة: دعم . ص ١٣٨٤ .
- (٥) فصول في فقه اللغة . ص ٣٣٢، ٣٣٣ .

المبحث الخامس:

التضاد

يقصد بالتضاد ورود اللفظ الواحد على معنيين مختلفين، ونعني بالمخالفة - هنا - أن يكون كل معنى من هذين المعنيين ضدا للآخر. وثمة اختلاف بين علماء اللغة والمشتغلين بها في النظرة إلى ظاهرة الأضداد، باعتبارها ظاهرة من ظواهر العربية، مثله في ذلك مثل الترادف. فقد أيد فريق وجود تلك الظاهرة، وأورد في ذلك ما رآه من حجج وأسانيد، ومن هؤلاء الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ)، وابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) وابن سيده (ت ٤٨٥هـ)، وأنكر فريق آخر وجود هذه الظاهرة في العربية، ومن أشهر هؤلاء ابن درُستويه (ت ٣٤٧هـ). وكانت حجة منكري ظاهرة التضاد أن اللغة وُضعت للإفصاح عن المعنى والتعبير عن الفكر، ووجود لفظ واحد يعبر عن معنيين مختلفين يؤدي إلى الغموض وانغلاق المعنى مما يتنافى وطبيعة اللغة.

وعلى الرغم من قلة الأضداد في العربية إلا أن ثمة حقيقة مهمة، وهي أن هناك كثيراً من الألفاظ التي تعد من الأضداد تميل الآن إلى الاستقرار على معنى واحد من المعنيين اللذين كانا لكل لفظ، من ذلك مثلاً لفظ «المولى» بمعنى السيد والخادم، فنلاحظ أن اللفظ يستخدم الآن بالمعنى الأول، سواء أكان ذلك في مستوى الخطاب الأدبي أم في مستوى الخطاب النفعي، ولا نكاد نجد استخداماً له بالمعنى الثاني، ويرجع ذلك إلى طبيعة التغيرات الاجتماعية التي أحدثت هذه التغيرات الدلالية. ومن هذه الألفاظ أيضاً لفظ «التوَّاب»، وله معنيان: التوَّاب هو الله تعالى، وهو أيضاً التائب، إذ نلاحظ أن دلالة اللفظ تكاد تستقر على حال واحدة، وهي الدلالة على الله عز وجل.

ويضاف إلى ذلك أن ثمة ألفاظاً قال العرب إنها من الأضداد، مثل: المفازة، أي الصحراء، والملدوغ، أي السليم، والبصير، أي الأعمى... فهذه الألفاظ وأمثالها مما تشير إلى التفاضل وتوحي بعكس المدلول الحرفي للفظ إنما ترجع إلى أن «التفاضل والتشاور من غرائز الإنسان، التي تسيطر على عاداته في التعبير إلى حد كبير، فإذا شاء المرء التعبير عن معنى سيئ، تشاءم، من ذكر الكلمة الخاصة به، وفر منها إلى غيرها، فجميع الكلمات التي تعبر عن الموت والأمراض والمصائب والكوارث، يفر منها الإنسان، ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى»^(١). ويعنى ذلك أن هذه الألفاظ وأمثالها ليست من الأضداد في شيء، وإنما هي من قبيل تلطيف اللفظ وتحسينه، والتعبير عن المعنى السيئ بلفظ مستحب.

ونخلص إلى القول بأن قضية الأضداد من القضايا اللغوية التي لم تحسم بعد، والتي اختلف حولها القدماء والمحدثون، ما بين مؤيد لها ومنكر. ونحن نميل إلى الإقرار بوجود ظاهرة الأضداد في اللغة، ولكنها ظاهرة محدودة في الألفاظ قليلة يمكن إحصاؤها، كما أن طبيعة التطور اللغوي جعلت كثيراً من الألفاظ التي تعد من الأضداد ألفاظاً مهجورة، مثل: الجَوْنُ: للأبيض والأسود، والصريم لليل والنهار، والنَّحَاخَةُ: للسخاء والبخل، والربيبة: للتي تُرَبَّبُ والتي تُرَبَّبُ^(٢).

وترجع نشأة الأضداد إلى الأسباب التالية:

١ - اختلاف اللهجات، وذلك أن يكون اللفظ - في الأصل - ذا معنى واحد، ثم يصير للفظ معنيان، وذلك نحو «الصَّريم»، يقال لليل صريم، وللنهار صريم؛ لأن الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل؛ فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع. وكذلك الصارخ: المغيث، والصارخ: المستغيث، سميَا

(١) نصول في فقه اللغة العربية . ص ٣٤٥ .

(٢) الربيبة: بنت امرأة الرجل من غيره، والحاضنة. ورَبَّ الولدَ ربا: تعهده بالرعاية، والمفعول (ربيبة)، والمؤنث بناء.

بذلك لأن المعنيث يصرخ بالإغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة، فأصلهما من باب واحد. وكذلك السُدْفَةُ: الظلمة، والسُدْفَةُ: الضوء، سميا بذلك، لأن أصل السدفة الستر، فكأن النهار إذا أقبل ستر ضوءه ظلمة الليل، وكان الليل إذا أقبل سترت ظلمته ضوء النهار^(١)، والسدفة: الظلمة، عند تميم، وهي الضوء، عند قيس.

٢ - التفاؤل والتشاؤم، ويتضح ذلك في النفور من استخدام لفظ غير مستحب للتعبير عن معنى سيئ، ومثال ذلك التعبير عن الصحراء بالمفازة، وهي مكان مهلك. ومنه أيضاً إطلاق (السليم) على الملدوغ، والناهل على العطشان. وفي العامية المصرية يستخدم التعبير: (فلان بعافية)، إشارة إلى مرضه.

ويتصل بهذا أيضاً الرغبة في اتقاء الحسد باستخدام الفاظ لا تعبر عن المعنى المراد، بل تجيء تلك الألفاظ معبرة عن عكس الدلالة المقصودة، من ذلك إطلاقهم لفظ (الشوهاء) على المرأة الجميلة. قال أبو حاتم: لا أظنهم قالوا للجميلة: شوهاء إلا مخافة أن تصيبها عين، كما قالوا للغراب: أعور، لحدة بصره^(٢).

٣ - التأدب، ويبدو ذلك في إطلاق لفظ (البصير) على الأعمى.

٤ - التهكم، كما في قولهم للمجنون: يا عاقل. وفي العامية المصرية يقال لمن يتناول باللفظ: يا مؤدب، ويقال للبليد: يا شاطر^(٣).

(١) المزمهر ١/٤٠١.

(٢) أبو حاتم السجستاني: الأضداد.

تحقيق: د. محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م). ص ٢٢٥.

(٣) وردت كلمة (شاطر) بمعنى اللبيب الفطن في (المحاسن والأضداد) للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ). ص

٢١٧.

مكتبة القاهرة، بالصادقية بالأزهر، ط ١، (١٩٧٨ م).

٥ - المجاز، ويتضح ذلك في لفظ (الأمّة)، إذ «يقال: الأمّة للواحد الصالح الذي يُؤتم به، ويكون عكماً في الخير، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾^(١). ويقال الأمّة للجماعة، كقوله عز وجل: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾^(٢) (٣).

وقد وضع اللغويون شروطاً لتحديد الألفاظ التي تعد من الأضداد، ومن هذه الشروط ما يلي:

١ - أن يكون اللفظ الواحد دالاً على معنيين في إطار اللغة الواحدة، وقد نبه إلى هذا ابن دريد في الجمهرة حين قال: «الشَّعْبُ: الافتراق، والشَّعْبُ: الاجتماع، وليس من الأضداد، وإنما هي لغة قوم، فأفاد بهذا أن شرط الأضداد أن يكون استعمال اللفظ الواحد في المعنيين في لغة واحدة»^(٤).

٢ - اتحاد الكلمة ومتعلقاتها في المعنيين؛ لأن أي تغيير فيها، أو في متعلقاتها، يخرجها عن كونها بذاتها تحتمل المعنيين المتضادين»^(٥)؛ ولذا رد الأنباري (ت ٣٢٧هـ) رأى قطرب (ت ٢٠٦هـ)، الذي عدّ «من الأضداد قولهم: بَدَن الرجل، إذا حمل اللحم والشحم، وبدنٌ تبدينا، إذا أسن وكبّر وضعف»^(٦)، فقال: ليس الأمر عندي على ما ذكر قطرب، لأن «بدنٌ» لفظه يخالف لفظ «بدنٌ»، وما لا يقع إلا على معنى واحد لا يدخل في حروف الأضداد»^(٧). كما

(١) سورة النحل . الآية (١٢٠) .

(٢) سورة القصص . الآية (٢٣) .

(٣) الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري . ص ٢٧٠ .

(٤) المزمهر: ٣٩٦/١ .

(٥) فصول في فقه العربية . ص ٣٤٠ .

(٦) الأضداد ص ٤٠٠ .

(٧) السابق . ص ٤٠٠، ٤٠١ . وانظر: ص ١٥٣ .

لا يعد من الأضداد: (راغ على كذا)، بمعنى أقبل، و (راغ عن كذا) أى ولى
 وذهب، لاختلاف حرف الجر. ومنه كذلك: (رغب فى)، و (رغب عن).

٣- أن يكون اللفظ الواحد دالاً على معنيين متضادين، ولذا فإن قول قطرب إنه «من
 الأضداد قولهم: أَلَيْتَ المرأةَ تَأَلَى، إذا عظمت أَلَيْتُهَا، وَأَلَيْتَ الشاةَ وغيرها، إذا
 قُطِعَتْ أَلَيْتُهَا»^(١) ليس بصحيح؛ «لأن كل واحد من الحرفين ينفرد بمعنى
 واحد، ولا يقع على معنيين متضادين»^(٢).



(١) السابق . ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

(٢) السابق . ص ٤٠٧ .